الفصل السادس

التربية الصحية

أول ما نبدأ به هذا الفصل الإشارة إلى أمر لا نرى بين أمورنا العامة أهم منه، ولا أبعد منه خطورة، ونريد به كثرة الموت بين أطفالنا، فإنك إذا نظرت إلى معدل الوفيات في البلاد الشرقية عامة، والعربية منها خاصة، تجد أن أكثر ما تنشب المنية أظفارها في الصغار، فتذهب بهم قبل أن يدركوا لهذه الحياة لذة، ويذوقوا من هذه الدنيا حلاوة. وإذا قابلت بين هذه الوفيات في بلادنا الشرقية وما سواها من البلاد الأخرى، ثبت لك أن الموت اتخذ إلى أطفالنا سبيلاً ممهدًا، وبابًا مفتوحًا.

ولقد بحثنا عن الأسباب التي تنتج هذه الحالة السيئة، ونقبنا عن العلل التي تقضي في بعض الأحيان، بأن يلد للرجل منا البنون والبنات، ثم يقضي أيام حياته دون أن يناغيه أحد أولاده بلفظة "أباه"، فلم نجد لذلك سببًا سوي جهل عامتنا لأبسط القواعد، والقوانين الصحية التي لا يستغني عن معرفتها، والعمل بها رب عائلة، وأبو ولد.

وأنه ليتفق كثيرًا أن يمر الرجل منا الأحياء التي تسكنها العامة، أو يدخل منازلهم، أو ينظر إلى أولادهم يسيرون في الشوارع، أو يتناولون مأكلاً، أو مشربًا، فيعلم مقدار ما هم فيه من الجهل لتلك القوانين الصحية، والبعد الشاسع عن القواعد التي يجب العمل بها؛ لتنمو الأجسام، وتقوى الأبدان، وتمتنع تلك الآفة التي نعوذ بالله منها، ونريد بها موت الصغار بجهل آبائهم

وأمهاتهم لطرق التربية الصحية.

ومتى نظر الرجل منا بعين الإمعان إلى جهل عامتنا لتلك القواعد، والقوانين لم يبق لديه مجال للعجب والاستغراب من رؤيته الصغار يُنقلون افواجًا إلى المدافن، بل يقف حينئذ والحزن ملء قلبه، وكل جارحه فيه تتألم لهذه الحالة ألمًا شديدًا.

علي أنه لا حاجة بنا إلى القول بأن الحزن والتألم لا يدفعان مكروهًا، ولا يرفعان ضيمًا، فمن الواجب إذًا أن نستبدلهما بالسعي وراء ما ينير أذهان الأمة، ويعملها الجري علي القواعد الصحية الأولية. ولذلك كان فرضًا علي كل والد ومربٍ أن يجعل أول همه في تربية الولد، أن يوجه جل عنايته إلى تسييره في الطرق الصحية الواجبة.

ولا بد لنا هنا من توجيه الخطاب إلى الأمهات، ورئيسات الأسر، والعائلات؛ لأن هذا الأمر موكول بنوع خاص إلى عنايتهن، فإن المرأة أول من يقوم بتربية الولد؛ إذ تنتدبها الطبيعة قبل أبيه ومعمله، لحمله، وتغذيته، وتقوية بدنه

ولسنا في هذا المقام نعدد القوانين الصحية، والقواعد، والشروط التي يجب العمل بها، فإن ذلك متوفر في الكتب الطبية، والمؤلفات الصحية، لكننا مع ذلك لا نري بدًا من الإشارة إلى وجوب النظافة التامة، فإن أكثر أمراض الأطفال عندنا سبب عن قذارتهم. حتى إن كثيرين يصابون بالعاهات، وأمراض العيون لابتعادهم عن النظافة في حين أنها أهم مواطن الصحة والعافية.

وقد قال أحد أطباء العيون يومًا علي مسمع منا: أن ثمانين في المائة ممن يعالجهم من العرب يصابون بأمراض العيون، وقد يفقدون بصرهم عن غير سبب

سوي إهمالهم أمر النظافة إهمالاً تامًا، في حين أنه ليس أسهل من غسل العيون ولو مرة عند الصباح.

ومن يصدق أن رجلاً في سن الأربعين قال مرة أمامنا –وهو يفاخر– أن الماء وبدنه لم يلتقيا بعد مرة واحدة. بل من يصدق أن ابن العامة عندنا يمر علي النيل مرات في اليوم الواحد، ويقطع مسافات علي شاطئ البحر دون أن يغسل وجهه في الشهر مرة واحدة، في حين أن الأديان كلها –والدين الإسلامي خاصة– تأمر بالنظافة، وتنهى عن المبيت علي قذارة. ولسنا نعرف لذلك سببًا سوي جهل الوالدين للأمور الصحية، وإهمال المعلمين والمربين تعويد الأولاد عليها، فإذا كبروا كانوا كآبائهم جاهلين لها تمامًا.

وانظر إذا شئت إلى الصغار في البيوت كيف يتمرغون في التراب، وانظر إلى الأولاد في الشوارع والطرق، ثم انظر إلى تلامذة المكاتب الأهلية الصغيرة، فإنك إذا فعلت لا ترى أقل تقدم وإصلاح في الحالة الصحية، ولا يأخذك العجب بعد ذلك من موت الصغار بكثرة، وتفشي العاهات والإسقام في الذين ينجون من مخالب الحمام.

وأنه يحدث كثيرًا أن يموت الصغير، أو يمرض ويبتلي بالعاهات، لا لعدم العناية به، بل لإهمال الوالدين أمر أنفسهم، وغضهم النظر عما يتعلق بصحتهم، فيأتي الولد وفي دمه جرثومة العلة، ولسان حاله ينشد:

هـــــذا جنـــــاه أبي علـــــي ومـــا جنيـــت علـــى أحـــد

فلقد شاهدنا آباءً كثيرين، وأمهات عديدات مصابين بالأمراض الخبيثة التي يرثها الولد عن الوالد، وتكون سببًا إما في موته صغيرا، أو في قضائه أيام الحياة بين الأوجاع والآلام، وهم مع ذلك لا يلوون علي أنفسهم، ولا يحسبون

للأمر حسابًا.

وكثيرا ما رأينا رجالا يحملون في دمهم جراثيم الأمراض والعاهات الخبيثة القاتلة، ثم هم يقدِمون علي الزواج قبل تنقيه أبدانهم مما هو وِبال علي أولادهم، وسبب حزن وغم دائمين لهم؛ لأن موت الصغير من أعظم البلايا وأكبر المحن.

ولا شك في أن مثل هؤلاء من أعظم الجناة؛ فإن جنايتهم تعم الهيئة الاجتماعية بإجمالها أكثر مما تعمها جناية أي قاتل، ومنتحر، ولص، ومزور.

وإن لم يكن في القوانين والشرائع عقاب لعملهم، فإن العقاب واقع عليهم من نفس فعلهم، والجزاء الحق من جنس العمل، فليتدبر إذًا الآباء، والأمهات هذا الأمر الخطير، وليتقوا الله في أولادهم، والوطن في أبنائه. وليذكروا دائمًا أن رأس شروط التربية شرطها الصحة، وأن رأس الصحة النظافة وترتيب المعيشة. والله الواقي علي كل حال.